العرب
الأربعاء 2019/10/09
السنة 42 العدد 11492

من ميتران.. إلى بوش الابن وترامب

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

من الصعب تصوّر منطقة مستقرّة في غياب عراق مستقرّ. من الصعب أيضا تصوّر منطقة مستقرّة في غياب سوريا مستقرّة. لن يستقرّ العراق قريبا، ولن تستقرّ سوريا قبل معالجة النتائج التي ترتبت على سقوط العراق في يد إيران في العام 2003. هل مثل هذه المعالجة ممكنة أم أنّ أوانها قد فات؟ يطرح هذا السؤال نفسه في ضوء التدمير الممنهج الذي تعرّض له العراق، لأسباب أميركية، والذي تعرّضت له سوريا لأسباب مختلفة يعود معظمها إلى رفض النظام القائم، وهو نظام أقلّوي ليس لديه ما يقدّمه للمواطن السوري من إصلاحات مطلوبة، التخلي عن شعار "الأسد أو نحرق البلد". لم يكن لدى هذا النظام، وليس لديه حاليا، ما يقدّمه للسوريين غير القمع والذلّ والبؤس والبراميل المتفجّرة... والشعارات الفارغة عن "المقاومة والممانعة".

هناك خلل أساسي حصل على الصعيد الإقليمي، بسبب العراق. بات من الصعب إصلاح هذا الخلل. كم يجب أن نتذكّر في مثل هذه الأيّام كلام الرئيس الفرنسي الراحل فرنسوا ميتران ردا على المعترضين على تأجير العراق خمس طائرات "سوبر ايتندار" لم تكن البحرية الفرنسية تمتلك غيرها، وتزويده صواريخ "اكزوسيت" التي تُستخدم في ضرب القطع البحرية. كان ذلك في العام 1983. كانت إيران، المصرّة على متابعة الحرب مع العراق، بدأت تستعيد المبادرة عسكريا، فيما القوات العراقية تتراجع على كلّ الجبهات. كانت هناك حاجة إلى ما يوقف التقدّم الإيراني وذلك عن طريق وقف الصادرات النفطية الإيرانية إلى أبعد حدود. كانت هناك حاجة إلى دعم العراق عسكريا وتمكينه من الصمود في وجه التقدّم الإيراني. أدّت الطائرات الفرنسية وصواريخ "اكزوسيت" الغرض المطلوب، ولعبت دورا في إنهاء الحرب بالطريقة التي انتهت بها، أي بشبه انتصار عراقي وذلك بعد ثماني سنوات من القتال ومن استنزاف موارد العراق وإيران ودول الخليج.

لم يعد مسؤول أميركي يتجرأ على طرح سؤال من نوع ما الذي جنيناه من حرب العراق أو من مهادنة إيران في سوريا وترك نظام سوري يتابع حربه على شعبه بكل وسائل القتل المتاحة وغير المتاحة في ظل تصفيق روسي

وقتذاك، سُئلَ ميتران عن الأسباب التي دفعت فرنسا إلى القيام بما قامت به، أي إلى تأجير طائرات ليس لديها بديل عنها، إلى دولة أخرى في الزمن الحرب؟ أجاب الرئيس الفرنسي، الذي لم يكن يكنّ ودّا لصدّام حسين، كون صدّام دعم منافسه جاك شيراك في انتخابات الرئاسة الفرنسية، بما معناه: أن المسألة تتجاوز العلاقات الشخصية مع الرئيس العراقي. أهم ما قاله أنّ الحدود القائمة بين العراق وإيران ليست مجرّد حدود بين دولتين، بل هي "حدود بين حضارتين كبيرتين، هما الحضارة الفارسية والحضارة العربية". شدّد على أن هذه الحدود التي عمرها مئات السنين يجب أن تبقى على ما هي عليه، لأن اختراقها يعني اختلال التوازن الإقليمي كلّه. هناك توازن قديم بين العرب والفرس، وهناك أيضا توازن قائم على النظام الإقليمي الذي وُلدَ من رحم انهيار الدولة العثمانية في عشرينات القرن الماضي.

على الرغم من أنّ هناك جدلا طويلا في شأن من الذي بدأ الحرب في العام 1980، العراق أم إيران، إلا أن ميتران فضّل الذهاب إلى البعد الخطير الذي سيترتب على دخول إيران إلى العراق.

امتلك ميتران فكرا استراتيجيا جعله يتصدّى لمعمّر القذافي عندما أقْدمَ على مغامرته التشادية. كان يدرك أنّه ليس مسموحا لدول دكتاتورية مثل جماهيرية القذّافي الذهاب إلى أبعد من حدودها ونشرها الفوضى في بلد فقير مثل تشاد يمتلك ثروات كبيرة من المعادن.

في المقابل، أقدمت الولايات المتّحدة في العام 2003 على ما لا يمكن أن تُقدم عليه دولة تمتلك ولو القليل من الخبرة في ما يخصّ العلاقات الدولية. أقدمت على احتلال العراق وتسليمه إلى إيران. ليس معروفا بعد ما الذي دفعها إلى ذلك، وإلى توفير دفع جديد للمشروع التوسّعي الإيراني الذي أوقفته الحرب العراقية-الإيرانية بين 1980 و1988. لا يزال السبب الذي دفع جورج بوش الابن على شنّ الحرب في العراق لغزا. كلّ ما توفّر أن بول وولفويتز، نائب وزير الدفاع الأميركي في حينه، كان أوّل من أثار الموضوع في اجتماع لكبار المسؤولين الأميركيين مباشرة بعد أحداث الحادي العشر من أيلول-سبتمبر 2001. عقد ذلك الاجتماع في كامب ديفيد وبحث فيه في كيفية الردّ على ما ارتكبه تنظيم "القاعدة" الذي كان يتزعمّه أسامة بن لادن الذي اتخذ من أفغانستان ملجأ له.

تفرّد وولفويتز بطرح موضوع غزو العراق، فتصدّى له وزير الخارجية كولن باول، استنادا إلى محاضر الاجتماع الذي نشرته مجلّة "فانيتي فير"، مؤكدا أن لا علاقة لصدّام حسين بـ"القاعدة" وبأسامة بن لادن. وعند انتهاء الاجتماع سُئلَ نائب وزير الدفاع الأميركي عن سبب طرحه موضوع العراق، فأجاب "زرعتُ البذور"، أي بذور حرب العام 2003.

لم يتغيّر شيء إلى الآن، لا تزال الولايات المتحدة تطرح أفكارا لا بعد إستراتيجيا لها من نوع ترك أتراك سوريا لمصيرهم في وقت تستعد تركيا لإقامة حزام أمني في الشمال السوري. لم يتردد الرئيس دونالد ترامب في تبريره لوقف الحماية الأميركية للأكراد في القول عبر تغريدة "قاتل الأكراد إلى جانبنا، لكننا دفعنا لهم أموالا طائلة وزودناهم بمعدات كي يفعلوا ذلك. إنهم يقاتلون تركيا منذ عقود. أوقفت هذا القتال لثلاث سنوات تقريبا، لكنه آن أوان أن نترك هذه الحروب السخيفة التي لا نهاية لها وكثير منها حروب قبلية وإعادة جنودنا إلى بلدهم. سنحارب حيث نجد لنا مصلحة. سنحارب من أجل أن ننتصر. على تركيا وأوروبا وسوريا وإيران والعراق وروسيا والأكراد معالجة الوضع وإيجاد مخرج لما يريدون عمله بمقاتلي الدولة الإسلامية الذين أسروا في جوارهم".

في ضوء هذه التغريدة، يمكن التساؤل فعلا هل لدى إدارة دونالد ترامب سياسة شرق أوسطية... أم أنها تريد معالجة فوضى العراق وسوريا بمزيد من الفوضى، بل تريد عمل أيّ شيء تفاديا للبحث في الأساس. الأساس ما الذي يمكن عمله في العراق الذي يشهد حاليا أحداثا في غاية الخطورة بعدما انتفض العراقيون في وجه الاحتلال الإيراني والطبقة السياسية الفاسدة التي تمثّله والتي يحتمي بها ويستخدمها عطاء لممارساته.

بين الفكر العميق لفرنسوا ميتران من جهة، وفكر كلّ من جورج بوش الابن ودونالد ترامب من جهة أخرى، ليس ما يشير إلى رغبة في التعاطي الأميركي الجدّي مع مشاكل الشرق الأوسط والخليج وأزماتهما. لم يعد هناك في واشنطن من يفكّر سوى بالفوضى وكيفية نشر الفوضى. لم يعد مسؤول أميركي يتجرأ على طرح سؤال من نوع ما الذي جنيناه من حرب العراق أو من مهادنة إيران في سوريا وترك نظام سوري يتابع حربه على شعبه بكل وسائل القتل المتاحة وغير المتاحة في ظلّ تصفيق روسي...

العراق، هذا أوان التغيير

سمير الصميدعي
كاتب عراقي*

في عام 2004 انتقلت من الدور السياسي الذي قمت به سابقا (المعارضة ثم مجلس الحكم ووزارة الداخلية) إلى دور دبلوماسي (ممثل العراق الدائم في الأمم المتحدة ثم سفيره في واشنطن) وكان ذلك لأني أدركت أن القافلة السياسية في العراق خرجت عن مسارها المأمول وبدأت تغطس في مستنقعات الطائفية والفساد، بدلا من التوجه لبناء البلد الذي أنهكته الدكتاتورية والحروب، ولم يملك البوصلة التي تساعده على استغلال الفرصة المواتية لاستخدام موارد البلد الوفيرة والرغبة العالمية في مساعدته لاستعادة عافيته، بمساندة عالمية سياسية ودبلوماسية وفنية ومالية.

أدركتُ أن الفرصة بدأت تتلاشى، وأن علي أن أتخذ لنفسي موقعا جديدا خارج العملية السياسية أعمل من خلاله بكل طاقتي للحفاظ على مصالح العراق، والدفاع عنها، في نطاق أهم علاقتين خارجيتين للعراق، وهما علاقته بالمنظومة الدولية (الأمم المتحدة) وعلاقته بالولايات المتحدة، الدولة التي أحدثت التغيير، والتي كنا نأمل بشيء من السذاجة، أن تديره بالوجهة الصحيحة.

وعلى مدى قرابة ثماني سنوات (من 2004 إلى 2012) كنت أتابع بقلق وباهتمام شديدين التدهور الذي يجري في الداخل والذي شهدتُ بوادره.

كنت أتابع، وأنا متشبث بأمل بدأ يضعف مع الوقت، أن الإصلاح آت عاجلا أم آجلا، وما علي إلا أن أقوم بواجبي على أتم وجه، والزمن كفيل بأن نتعلم من أخطائنا، ونبني ثقافة جديدة تتواءم مع طموحاتنا في الحرية والديمقراطية والحكم الرشيد.

عندما كنتُ في مجلس الحكم كان أحد كبار المسؤولين الأميركان يصفني بالمتفائل، وحينما قابلني في واشنطن بعد سنوات سألني إن كنت لا أزال متفائلا فأجبت: نعم، ولكن المدى الزمني تغير من خمس سنوات إلى- ربما- عشرين سنة. ومع مرور السنوات تمدد المدى الزمني حتى توارى أفقه.

حين تركت عملي الدبلوماسي في بداية عام 2012 التزمت موقفا أقرب إلى الإيجابية منه إلى السلبية، وتجنبت التصريحات الحادة أو الهجومية، من مبدأ "دفع الضرر مُقدّم على جلب المنفعة"، ولكن قناعاتي كانت تزداد تشاؤما مع الوقت، والويلات التي تزاحمت في الولاية الثانية لنوري المالكي، حيث تهيأت الأرضية لانتكاسة 2014، وانكسار الجيش الذي بني بطريقة كارتونية سهلت إقامة دولة داعش، وما رافقها من دمار وتضحيات دفع ثمنها الشعب العراقي ولا يزال. كل ذلك وأنا أتساءل: هل يمكن أن تزداد الأمور سوءا؟

فالإرهاب ومخلفاته وذيوله، والمحاصصة الطائفية في الحكم، والفساد الخرافي المكشوف شبه العلني الذي أصبح ركنا من أركان النظام السياسي، والذي أصبح طاردا للاستثمار والنماء الاقتصادي، وتفشي ثلاثي الجحيم (الفقر والجهل والمرض)، والتردي في كل شيء، بحيث صار العراق في أدنى التراتبية العالمية في التعليم والصحة والأمن والزراعة والصناعة والنقل والبيئة والكهرباء والخدمات وحقوق الإنسان والثقافة والفنون، وكل ما يرفع الإنسان ويحسن حياته.

كل هذا لأن الدولة أفرغت من الداخل، واختزلت في وعاء لتوزيع المنافع والغنائم، فأصبحت شبح دولة، وبسلطة واهية، وإرادة ضعيفة، وهيبة منتهكة. وانتقلت السلطة الفعلية في القضايا الهامة إلى الدولة العميقة والميليشيات التي تدين بالولاء إلى دولة أخرى، وإلى قوى إجرامية محلية متنوعة.

أما القادة السياسيون فهمُهم الأول الإبقاء على مصالحهم بالاحتماء بمن يضمنها لهم، وليس بناء الدولة والمواطن. وصرنا نشاهد المزايدات التي تدعو إلى السخرية. فحيتان الفساد يعلنون عن أهمية محاربته، والطائفيون حتى النخاع يلعنون المحاصصة الطائفية، بينما هم ملتزمون بها بإصرار.

وقد شاهدنا ونشاهد تفاقم الاستياء الشعبي إزاء هذا الوضع المتردي من خلال المقاطعة الواسعة للانتخابات الأخيرة، وخروج مظاهرات عارمة في البصرة وغيرها، تندد بالفساد وسوء الإدارة والمتاجرة بالدين.

وأثناء ذلك انبرى عدد من المثقفين والكتاب الوطنيين الذين هالهم ما يجري في وطنهم من تدهور، بشجاعة وإخلاص، لفضح وتشخيص آثام الوضع الحالي في العراق، لكن في الغالب دون الخوض في كيفية الوصول إلى البدائل الأفضل.

قد يكون رسم الحالة المنشودة أمرا يسيرا، إذ هو نقيض ما عليه البلاد الآن: استقرار أمني، استقلال القرار السياسي، مصلحة العراق أولا، إنهاء المحاصصة الطائفية، القضاء على الفساد، الفصل بين السلطات واستقلال القضاء، بناء دولة المؤسسات على أسس الكفاءة والمهنية.

إن الذين يتظاهرون لا يعرفون كيف يحققون مطالبهم المشروعة، والذين ينظّرون لا يرسمون الخطوات لكيفية نقل البلاد من الحالة المزرية التي هي فيها إلى الحالة الأفضل التي نصبو إليها. وهو ما يجعل الدعوة للإصلاح قاصرة.

إن العجز عن تلمس خطوات إقامة خطوات الإصلاح يصب في مصلحة الجهات المستفيدة من بقاء الوضع الراهن، (داخلية كانت أو خارجية)، خاصة وأنها غير مكترثة بالمعاناة البشرية وانغلاق آفاق المستقبل.

العراق الآن مهيأ للتغيير كما لم يكن في الحقبة الماضية. وهو ما يستوجب التحرك للعمل من أجل المشاركة في إدارة هذا التغيير وتوجيهه باتجاهات إيجابية، وتجنب المطبات الخطيرة التي سوف توضع في طريقه

وفي مجالس العراقيين في داخل العراق وخارجه، في لقاءات عابرة أو ندوات منظمة، تلاحَظ الظاهرة ذاتها. تشخيص المرض، مع غياب تشخيص العلاج، وتنتهي جميعها تقريبا بحالة من اليأس والعجز الذي يرثى له.

ومن أسباب ذلك أن الوضع الداخلي غاية في التعقيد والتشابك، مع وجود مصالح لقوى مسيطرة تعمل على إدامتها وحمايتها. وهو بعد ذلك، مترابط ومتداخل مع وضع إقليمي سمتُه الرئيسية الاستقطاب والمواجهة بين جمهورية إيران الإسلامية وحلفائها، والولايات المتحدة وحلفائها. وبالنسبة لإيران فإن هذه المواجهة مصيرية لنظام ولاية الفقيه وهي مستعدة لأن تخوضها إلى آخر عراقي.

إن الوضع الشاذ والمزري في العراق لا يملك عوامل ديمومته، فهو هش ومعرض للانهيار في أي هزة داخلية أو خطة خارجية يمكن أن تنحدر به إلى هاوية لا قرار لها، ولكن هناك أيضا عوامل يمكن أن تتحول إلى عناصر دفع إيجابية نحو الإصلاح وهذه بعضها:

1 – الفشل المدوي للعملية السياسية الحالية على كل الأصعدة وبكل المقاييس ووضوح هذا الفشل للجميع.

2 – نتيجة لذلك تنامى الرفض الشعبي للوضع الحالي، لاسيما بين أوساط الشباب الذين لا يرون مستقبلا لهم مع دوام هذه الحالة، وأوساط الطبقات المحرومة التي يقع عليها القسط الأكبر من المعاناة، واحتياجاتهم للحد الأدنى من متطلبات العيش، ولا نقول العيش الكريم. هذا هو المحرك لموجة الاحتجاجات التي اجتاحت العراق ولن تتوقف ما دام الوضع الحالي كما هو.

3 – تراجع القدرة التعبوية للشحن الديني والطائفي لانكشاف زيفه وتنامي الرفض الشعبي له.

4 – الضغوط السياسية والاقتصادية التي تتعرض لها إيران واحتمالات تفاقمها وانعكاسات ذلك على الوضع السياسي في العراق.

5 – وجود قنوات تكنولوجية عالية الكفاءة للتوعية والتعبئة الجماهيرية من خلال وسائل التواصل الاجتماعي على الإنترنت.

6 – الإنترنت وإن كانت مليئة بالسموم التي تبثها قوى الظلام والجهات المستفيدة من هذا الوضع إلا أنها لا تزال مهمة جدا، لأن الواقع المعاش يدحض ادعاءات المشوشين. فبضاعتهم الفاسدة من الأكاذيب والنعرات الطائفية أصبحت مكشوفة كاسدة.

ولجملة هذه العوامل، فإن العراق الآن مهيأ للتغيير كما لم يكن في الحقبة الماضية. وهو ما يستوجب التحرك للعمل من أجل المشاركة في إدارة هذا التغيير وتوجيهه باتجاهات إيجابية، وتجنب المطبات الخطيرة التي سوف توضع في طريقه، بلا شك، ومنها الانجرار نحو العنف، وربما حتى إلى حرب أهلية. وهنا يأتي دور قيادة وطنية حكيمة لدعم الحراك الشعبي وتوجيهه في الاتجاه الصحيح.

في هذا الوقت إذا هناك ما يدعو إلى طرح التشاؤم والنظر إلى المستقبل بعين جديدة، بعيون الشباب الذين يتوقون إلى حياة تليق بالبشر، وقد ضاقت بهم السبل فخرجوا يتلقون الرصاص بصدورهم العارية، وبعيون الأطفال الذين سُرقت منهم طفولتهم، وكل الضعفاء الذين يستنجدون بمن ينقذهم.

ينبغي أن ننظر إلى المستقبل لا بعجز واستسلام، ولا من خلال التمنيات والأحلام الوردية، وإنما بمحاولة جادة لوضع خارطة طريق واقعية ومقنعة للتحول الذي طال انتظاره.

وليس لدي أي وهم بأن هذا الطريق سهل أو أن النتيجة المرجوة في متناول اليد في وقت قريب، فالعوائق كثيرة ومعروفة لا داعي لتكرارها هنا، وإن كان من الضروري الخوض في تفاصيلها وسبل معالجتها في الوقت المناسب.

* عضو مجلس حكم، وزير داخلية، مندوب العراق لدى الأمم المتحدة، سفير العراق في واشنطن